في إيجابية التوافق

حسن يوسف الطويشي

د. صلاح مخيمر

محمد أبو يوسف الكويتي

فى إيجابية التوافق

تأليف

دكتور صلاح مخيمر

دكتوراه الدولة - جامعة السوربون

أستاذ الصحة النفسية - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٩٨١

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

رقم الايداع ٤٢٢١ / ٨١
الرقم الدولى ٧ ـ ٤٧٤ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧

في إيجابية التوافق

الإهداء

إلى إبنى العزيز

نادر مخيمر

الذى يقف اليوم بكل الأمل والتحفز عند تلك البداية التى سنت أقف عندها منذ ٤٠ عاما .

صلاح مخيمر

تقديم

«البلد المجهول الذى لم يعبر من وراء حدوده
مسافر يثبط الإرادة ويجعلنا نؤثر تحمل تلكم
المكاره التى نعرفها على أن ننطلق لغيرها
مما لا نعرف عنها شيئا »

هاملت ـ الفصل الثالث ـ
المشهد الأول « شكسبير »

عندما تتسلق الظلمه كتف الأشياء يغمر الاستسلام للمألوف أفق الواقع الشاحب ، فتتعثر الخطى ويصبح التطلع لبصيص الفجر خروجا على المألوف ، على راغبة أن يجاهد وحده فى متاهات الصمت والليل والمعاناه واللامبالاه حتى يعانى فجرا يتسلل بشعاعه عبر تخوم الظلمات وليته آنذاك يسلم من تبعات كشفه إذ ينير معالم الطريق لأناس ألفوا الظلمه وأصبح النور لديهم عورة لا بد من أخفائها . والحق أن الأمر فى العلم اعقد من تلك الصورة بكثير ، فعبر اتهامات الأمس تلك التى ادانت كوبرنيكس ، وجاليليو

وكل مجاهد ضد المألوف سيظل قدر الإنسان (فى مواجهة عالم آثر «أن تلك المكاره التى نعرفها على أن ننطلق لغيرها مما لا نعرف شيئا عنها ») وستظل حركة العلم — ككل الابداعات — صراعا بين المألوف واللا مألوف بكل دافعيته الدرامية وتجلياته التى تناهض الشائع والمتاح والممكن بلوغا للأمثل بل والمستحيل .

وفى ضوء هذا الفهم لم يكن غريبا أن يشرفنى أستاذى مخيمر بتقديم كتابه فالعادة والعرف والمألوف جرت بأن تشرف القمة من عليائها على السفح ، وتتطلع الكائنات التى تحبو إلى الأفق عله ينشر ظلا أو يسدد خطى ، العادة والعرف والمألوف أن يقدم الأستاذ تلامذته ومريديه تشجيعا وتقديراً منه لهم ، ولكن منذ متى كان مخيمر يستسلم للمألوف وهو الذى قضى عمره ثورة دائبة ضد المألوف ، قد تبدو هذه المرة ثورة على شكل ، لكن منذ متى كان الشكل معزولا عن مضمون وهو الذى كان شاره إماره للجشطلتيه فى عالمنا العربى(١) وما أصدقها عبارة لاجاش عندما وصف رسالة مخيمر « نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى » بأنها « عمل جد جاد دسم ، منهجى وشخصى »(٢)

---

(١) كانت رسالة مخيمر للحصول على دبلوم الدراسات العليا من بالسربون تحت إشراف العلامة لاجاش موضوعها « نظرية الجشطلت وعلم النفس الإجتماعى » (الأنجلو ١٩٦١) كما ترجم كتاب بول جيوم « علم نفس الجشطلت » الطبعة الثانية سعيد رأفت ١٩٧٩ .

(٢) أنظر يوسف مراد والمذهب التكاملى ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٥٢٠

المألوف أن تجامل القمم طلابها ومريديها فترصع مطالع مؤلفات المريدين بتصديرها وتقريظهم، وتزكى أعمال الأبناء والزملاء بتقديمهم وفى كل الأحوال هذا صحيح ألفناه ولكن غير المألوف أن يقدم الطالب أو المريد أستاذه ومعلمه رغم أن المريد أعرف الناس بحقيقة علمه وقدر اسهاماته فالمريد هو الجمهور الحقيقى للعالم يعكف على أرائه مستأنسا ومحاورا وفاهما بعيدا عن قطعية الدوجماطيقية التى تفرض نفسها مع السنوات كنتيجة تلزم عن تحدد الاختيارات .

واستنادا إلى هذا المنطق ، جرنا الحوار — حوار المريد والمعلم — فوجدتنى استريح على صدر مؤلفاته وفتوحاته النظرية فلم نجد مناصا حقا من أن أمنح نفسى تلك السعادة الغامرة التى تنجم عن الاضطلاع بواجب علمى تفرضه أمانة الكلمة وروح العلم فى واقع ازدحمت فيه دروب العلم بفراغ يسد السبيل على أى مجاهدة ويتنكر دوما للجديد موثرا صمتا مفتعلا يعبر به متاهات الجهل والتجهيل ، لم يكن فكيا كا من أن أحاول فى إيجاز شديد أن أشير إلى الخطوط الرئيسية لأسهامات مخيمر فى حقل علم النفس ذاك الذى تشعبت سبله فى مصرنا فأصبح علوما فى النفس ، وانقطعت الأواصل بين مشتغليه — أيضا فى مصرنا — فباتوا منقطعين الصلة إلا من محاولات شاحبه هنا أو هناك سرعان ما ينطفىء نجمها إذ يأفل نوره .. يضيع .. يختنق لكن تظل الندره (من علماء « لا مشتغلين ») تقاوم الظلمه والصمت .. تحاول .. تجاهد تقف شامخة كى تمثل واقعاً هو بصيص أمل فى ذلك الوجود المزدحم

والغاص والمنكسر الدوائر المغلقة — أيضاً — بفضل مجاهدة الندرة التي يشرفني اليوم أن اتناول تقديم علم من أعلامها إلا وهو مخيمر ، من تفرض أمانة الكلمة ، ويدفعنا إليه الاعزاز أن نقر إبتداء بأننا لن نستطيع أن نوغل فى عمق أفكاره ، فهو شارة إمارة للفكر المصرى والعربى علامة على الابداع والاصالة وقبلها دليلا على جدلية الصراع بين المألوف وغير المألوف .

والمتأمل للنتاج العلمى لمخيمر يجده متنوعا جد التنوع ما بين تأليف وترجمة وتنظير وهو فى جماعة ضربات صميمية للمألوف اذ ألف أو ترجم أو نظر وإذا سمح لنفسى أن ابحر إلى شاطىء أعماله فسألتمس خطاى مع اخر نظرياته التى يثرى بها المكتبه العربية واعنى هنا مفهوم التوافق ذلك المفهوم المحورى فى علم النفس على اختلاف مجالاته .. وقد كان علماء النفس وما يزالون فى الغرب والشرق جميعا يجمعون على مبدأ تفسيرى واحد بعينه يعتبرونه معيارا للتوافق ويسمونه بخفض التوتر . فبقدر ما يتحقق التوازن انخفاضا للتوتر ما بين الفرد وبيئته من ناحية وما بين الانسقة المختلفة داخل الفرد من ناحية أخرى يكون حديثهم عن توافق هذا الفرد . كل شىء يبدو بالنسبة إليهم وكان إنعدام التوتر يجسد الحالة المثلى لتوافق الفرد فى بيئته ، متناسين أن مثل هذا المثل الأعلى للتوافق يستحيل تحققه بغير ما تحقق للموت والعدم . وبديهى أن الحكم على توافق الفرد بالنسبة إلى هؤلاء العلماء يقتصر على الحدود الضيقة للحاضر ليتبين مدى اقترابه وابتعاده عن انعدام كل توتر كحالة مثلى .

وهنا يحقق مخيمر ثورته السكوبرنيكية ويقلب منظور العلماء جميعا رأسا على عقب . فانخفاض التوتر ، بما يقترب من انعدامه إنما ينتمى إلى غرائز الموت بينما يكون التوتر واشتهاء المثير هو المبدأ التفسيرى الحق الذى ينتمى إلى غرائز الحياة ، فالتوتر (وارتفاع القلق أعظم مثال على ذلك) لا يعنى بالضرورة سوء التوافق أو الاختلال بل يمكن أن يكون ذلك، بقدر ما يمكن أن يكون تعبيرا عن ثراء الديناميات عند الفرد بتلك الايجابية الخلاقة التى تفرض عليه معاناه المخاضات ميلاذا للجديد أثر الجديد تقدما وصيروه على طريق المستقبل .

وكانت الارهاصه ما عبرت عنه سامية القطان تحت اسم « انتفاضة الحياه » فى رسالتها للماجستير حيث تكشف ارتفاع التوتر والقلق حينا كعلامه على حسن التوافق وحينا آخر كعلامه على سوء التوافق وكذلك تكشف إنخفاض التوتر والقلق وحينا علامه على مستوى لا بأس به من التوافق وحينا آخر كعلامة علي أدنى ما يمكن تصوره من مستويات التوافق . وقد عللت ذلك فى حينه استنادا إلى قانون العضوية فى نظرية الجشطلت حيث تتحدد دلالة التوتر (القلق) من حيث هو عرض وجزء بالرجوع إلى الكل الذى ينتمى إليه هذا الجزء إلا أن هذه الفكرة الجنينية نلتقى بها بعد سنوات عند مخيمر فى مقدمته لكتاب « كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية »[1] وقد غدت دعوة

---

(١) ساميه القطان الأنجلو سنة ١٩٨٠ .

عملاقة لثورة جديدة فى علم النفس . فعلم النفس لا يمكن الا أن يكون دراسة للحالات الفرديه ومن ثم يكون المنهج الكلينيكى هو المنهج الوحيد التخصصى لعلم النفس بينما يقتصر المنهج السيكومترى على علم النفس الاجتماعى طالما ينصب باهتماماته على الجماعات من تجريبيه وضابطه أو مقارنة وما يتمخض عنه ذلك من متوسطات ليس لها من وجود حقيقى فى الواقع الحى .

نعود من جديد إلى ما كنا بصدده من أن اشتهاء الاستشاره (كحاله) قد غدى عند مخيمر المبدأ التفسيرى الوحيد لكل مسالك الفرد السويه منها واللاسويه على السواء — وهنا كان ولابد أن يتعرض بالنقد لمبدأ فهو التكرار عند رويد ، ونحب هنا أن نشير إلى زاوية جد هامه عند مخيمر وهى ديمومه الديالكتيك لديه وصيروره الضربات التقويميه غير عابىء إلا بالعام كقيمة أو اثليه .. أنها إيجابية خلاقة تقيم الجديد من رحم القديم وليس غريبا آنئذ (إذا ما كانت الايجابية الخلاقة هى الصورة المثلى التى يتخذها اشتهاء الاستثارة فى الحالات السوية) أن يكون مخيمر بذلك قد أقام التوافق استنادا إلى تلك القوى الدينامية لدى الفرد والتى تكون دائما حبلى بانجازات المستقبل ، بعد ما كانت تستند عند الاخرين إلى استاتيكيه الحاضر بمواته وسكونه .

والدينامية تلعب عند مخيمر الدور المحورى فى علم النفس . فمن ناحية يرينا كيف تلتقى الفلسفة الوجودية بمفاهيمها الأساسية مع كل تيارات علم النفس عند هذا المفهوم الجوهرى ، مفهوم الدينامية ، ومن ناحية أخرى هاهو يرينا فى كتابه « المفاهيم — المفاتيح فى علم النفس » أن المفهومين الاساسيين فى

كل تيارات علم والنفس هما الدينامية والوظيفية ، ولكن ليعود بعد حين واستنادا إلى نظرية الجشطلت وهو رائدها المبرز فى عالمنا العربى — فيرد مفهوم الوظيفية إلى مفهوم الديناميه، هذا الذى يقيم عليه كل أشكال الأمراض ومختلف العلاجات النفسيه .

ولكن كيف يمكن أن يكون تصوره لديالكتيكية غرائز الموت والحياه فيما يعرض له من « مفهوم جديد للتوافق » يقوم على مبدأ اشتهاء الاستثاره ؟ . لنستمع إلى محيمر :

« فديالكتيكية الحياة تقضى على كل مجموعه من المجموعتين الغريزيتين أن تتخذ من الأخرى وسيلتها إلى هدفها . بذلك تركب غرائز الحياه مخاطر الموت كوسيلة لتبلغ إلى اثراء الحياه . وكذلك فإن غرائز الموت تجد فى اشباعات غرائز الحياه فى أفراط سبيلها للبلوغ إلى العدم .

ومع ذلك يظل الهدف فى الحالتين مختلفا . فغرائز الحياه تنشد أثراء الحياه ومن ثم تفتش عن الجديد والاستثارة وتركب المخاطر تشهيها وتسعى إلى توليدها بينما غرائز الموت تنشد العدم وتركب الاشباعات المسرفه فى سعيها إلى اطفاء جذوة الاستثاره وإزالة التوتر وخفض الرغبه . وفى كلمات فإن غرائز الحياة تتخذ من غرائز الموت مطيتها لإثراء الحياة بينما تتخذ غرائز الموت من غرائز الحياة مطيتها للتأدى إلى العدم ومادمنا بصدد الغرائز فها هو محيمر فى كتيبه « من الجنسية بغرائزها الجزئية إلى العدوانية » قد تمكن بمنطق

محكم ، ليس فقط من رضا كل أساس تستند إليه الغرائز الجزئية فى الفكر الفرويدى بل أيضاً وعلى الخصوص من رد كل هذه الغرائز الجزئية إلى السادية. وأكثر من ذلك أنه يتأدى بنا من هذا كالله إلى قناعه تامه بالطبيعة الأساسيه للعدوانيه كمفهوم يستقل عن غرائز الموت . فليست الجنسية غير مظهر من المظاهر التى تتخذها العدوانية عندما تكن فى خدمة غرائز الحياة إيجابية وتوكيدا للذات . ومثل هذا المفهوم للعدوانية الذى يجعلها مرادفة لطاقات الحياة وأن تكن من حيث الأصل والمبدأ طاقات الموت والعدم يختلف تماما عن ذلك التصور الذى نجده عند أدلر . فالعدوانية هنا هى التى تتيح للحياه أن تزدهر كما عبر التكاثر والانتاج الحاشد وأن تزدهر كيفا عبر الابداع والقيادة مستعينه فى ذلك كله بالعدوانية من حيث هى تدميريه مشروعه للمعوقات التى تختلف تماما عن تلك التى تكون بشكل مباشر فى خدمة غرائز الموت تدميرية غير مشروعة للذات والموضوعات . ولكن كيف يتحقق الديالكتيك أثناء الحياة بين غرائز الموت وغرائز الحياة . بحيث تحرك هذه العدوانية الأساسية التى تمثل طاقات الحياه ، والجنسية التى تمثل مجرد سبيل من سبل الحياة ؟ . يجيب خيمر فيقول : « لكن كيف يتحقق الديالكتيك وكيف تكون المحصله بين غرائز الموت بعدوانيتها التدميرية التى تستهدف الفناء وغرائز الحياة بعدوانيتها الجنسية التى تستهدف البقاء ، يتحتم أن تكون المحصله صورة من صور البقاء فى غير بقاء ، والفناء فى غير فناء ، بحيث تبقى الحياة دون أن تبقى وتفنى دون أن تفنى . ذلك ما يحققه الانجاب عبر تواصل

النوع البشرى ، بحيث تفنى الحياة فى الجيل الحالى للأحياء ، ولكن لتبقى تواصل طريقها فى الجيل التالى الوليد من الأحياء . وبذلك أيضا تتابع الديالكتيكية مسارها فتمد العدوانية الحياة بطاقاتها ولكن لتجهز عليها وأن يكن على نحو يتيح للحياة أن تفلت وتتواصل فى الجيل التالى من الأحياء وهكذا دواليك فى غير توقف . وفى هذا مايرينا من جديد أهمية المراهقة كميلاد وجودى لجيل جديد يتيح للحياة أن تتابع تقدمها فى انتقالها التدريجى من جيل الاباء إلى جيل الأبناء » .

وكان مخيمر قد عرض فى « تناول جديد للمراهقة » نظريته الرائده التى تعتبر المراهقة بداية الميلاد الوجودى للفرد ، فقبل المراهقة يكون الطفل مجرد امتداد لوجود أبوية والاخرين فى بدنه ، وعندما يتحقق تشبيق الألوان والاشكال بالبلوغ وتتكون وقفه الفرد فى مواجهة الاخرين خارجه وداخله ، يكون الميلاد الوجودى الحقيقى لفرديه الفرد . فما من شىء ممكن على هذه الأرض بغير صراع فالمراهقة على المستوى السلالى هى هذه التى تتيح للانسانية أن تقف فى وجه نفسها صراعا بين جيل الأباء والأبناء ويتمخض صراع النقيضين عن أتلاف جديد يحمل الإنسانية خطوة جديدة للامام على طريق التقدم والصيرورة .

وهكذا يستحيل على الإنسانية بغير ظاهره المراهقة أن تعرف التقدم. ومخيمر هنا لايغفل الرابطة بين الآن والأمس فى كل يستبق حركة الغد

وإيقاع المستقبل ، فهو إذ يقيم تنظيرا يفتح نوافذ الحوار حول الغرائز الجزئية والعدوانية تلك التي أعاد فرويد صياغة نظريته في الدافع الفرزى من غرائز محافظة على الذات (الأنا) في مقابل غرائز المحافظة على النوع (الجنسية) إلى غريزتي ابروس وثناتوس (الحياة والموت) مقيما صرحا نظرياجديداأوصيغة إجماليه Schema ، ولكنه لم يعاود النظر حول تفاصيل جزئية أوردها في نظريته القديمة عن الغرائز تلك التي عرض لها ومنذ البدء في كتابه « ثلاث مقالات في نظرية الجنس » وكثيرا ماعاود الحديث عنها (على سبيل المثال « الغرائز وتقلباتها) وكان كتابه ماوراء مبدأ اللذة نهاية مكان لوقفه كأداء لازمته طويلا ووضحت معالمها عند دراسة للبرانويا في حالة شربر وعندما كتب مقالة « عن النرجسية » فعدل أخيراً من نظريته في الغرائز لكن بقيت رؤيته في الغرائز الجزئية على هامش السياق تحتاج لإعادة نظر .

وها هو مخيمر إذ يعيد بناء الوقائع من جديد يتناول مفاهيم الغرائز الجزئية مقوما ومجادلا ومبدعا في محاولة واعية للوصول إلي نمط كيفي يلم شمل الوقائع في نهج جاليلي . ومخيمر يرنو دوما للبلوغ لنمط كيفي ، نمط علاقة مثالية تنصهر في بوتقته كافة متغيرات الظاهرة ها نحن في كتيبه « تناول جديد لتصنيف الاعصبة والعلاجات النفسية » نتبين بذرة المحاولة الأولى

للوصول إلى هذا النمط لكل الأمراض النفسية وشتى صور العلاج النفسى ، لكن البذرة الأولى لا تنضج ثمرتها إلا فيمابعد ، وذلك فى كتابه «المفاهيم — المفاتيح فى علم النفس» حيث يقرر أن «صميم كل مرض نفسى إنما ينحصر فى هروب من مرهوب وصميم كل علاج نفسى إنما ينحصر فى مواجهة وتعرض للمرهوب فى ظل معالج محبوب» وأنه هنا — وفى ظنى — يقوم بتعطيل إرادى لريبته يحقق بها ويتجاوز معا مفاهيم أستاذه لاجاش تلك التى عرض لها فى الدرس الافتتاحى لمحاضرات علم النفس بالسوربون فى الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٨ وترجم مخيمر مقالامطورا لهاباسم «وحده علم النفس» فهو من ناحية يحقق تزاوجا بين مصطلحات السلوكية ومصطلحات التحليل النفسى ويمضى قدما نحوا بتعاث جماع لاينبغى فى الآن نفسه موقفه الصارم والناقد من السلوكية فهو وإن حقق مفهوم المصالحة والمزاوجه الذى دعى إليه أستاذه لاجاش (والذى فرضه عليه بدوره الواقع الأوربى بجانب خصوصية موقفه عندما تولى رئاسةقسم علم النفس بالسوربون) إلا أن مخيمر أبدا ما [illegible] بأن «و[illegible] [illegible] بين علم النفس التجريبى وعلم النفس الكلينيكى غير مرحلة ولت من تاريخ علم النفس» وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى آرائه التى أوردتها عنه أمينه مختار فى رسالتها للدكتوراه بجامعة عين شمس عندما ذكرت «أن علاج الغمر وعلاج التفجر الداخلى يعتبران عند الجميع بمثابه معسكر واحد يقف فى مواجهة المعسكر الآخر من العلاج السلوكى وتعنى

العلاج النفسى عن طريق الـكف بالنقيض مما يسمى بالتحصين التدريجى . ولـكن مخيمر فى محاضراته للدبلوم الخاصة يغير تماما من هذا المنظور ويقدم لنا الأدله على أن الغمر والتحصين التدريجى هما اللذان ينتميان إلى معسكر واحد يقتصر على تعريض المريض للمثيرات المرهوبه فى مستوى دلالتها الشعوريه أما علاج التفجر الداخلى فيمثل عند مخيمر تلك المحصله وذلك الائتلاف الذى انتهى إليه تطور التحليل النفسى من ناحية والعلاج السلوكى من الناحية الأخرى طالما أن علاج التفجر الداخلى يقوم بتعريض المريض لمدرج المثيرات الباعثه على القلق ليس فقط فى مستوى دلالتها الشعورية بل أيضا على الخصوص فى مستوى دلالتها اللاشعورية الأمر هنا إذن ليس أمر مصالحة وإنما هى ضربات صميمه من أجل أقامة مجمل يقوم على ديالـكتيـكية النظرة التقويمية إذلا علم دون تقويم وتمحيص هو بذاته قيمة الديالـكتيك عندما يدرك التحليل العيانى للشروط العيانية بلوغا لتحليل وتفصيل دقيق يستطيع العالم ذو البصيره أن يخرج منه بنمط كيفى جديد يتجاوز به يقينا مسارب تفسير عاقته عن الاستبصار ، وربما كان التناقض الوجدانى أحد العوائق التى كانت تحول دون عمق الفهم والموص والتقويم وقبل كل شىء التنظير الذى يتجاوز كل المعوقات السيكلوجية ويضع يده على بقايا كانت بمثابه عثرات على طريق المعرفة وهل كان لمخيمر أن يضرب ضرباته الصميميه إلا بعد حل الموقف الاوديبى بكل جنباته والتناقض الوجدانى ميكانيزم أساسى فى هذه الخبره ، وعلى ذكر التناقض الوجدانى ها هو مخيمر

فى كتيبه » فى التناقض الوجدانى » يخفض هذا المفهوم إلى كونه مجرد تعبير عن ديالكتيكيه غرائز الحياة وغرائز الموت عند الإنسان ، ويهاجم التثبيت على الاستيه الساديه كأساس للعصاب القهرى عند النساء ويحل محله التثبيت على المرحلة البولية اللاحقة على الاستية والسابقة على مرحله العضو الذكرى وفى صفحات هذا الكتيب الصغير الحجم العظيم القيمة يقدم إلينا مخيمر معيارا جديدا للحكم على السويه والعصابية والذهانية ويوجه انتقاضاته إلى أنماط النساء فى التصور الفرويدى بقيامه على التشريحية بدلا من الوظيفية ويخلص من هذا إلى القول بنمط جديد المهبليه صاحبه القضيب السيكولوجى .

هذا كله إلى تقويضه للحدود الفاصله مابين السادية والمازوشيه ورفضه أن تكون العلاقة بينهما علاقة مانعه . فالسادية والمازوشية ينفتحان للأنماط الاربعة التى نلتقى بها فى أختبار الرورشاخ الأمر الذى ينتهى بمخيمر إلى التأكيد على هامشيه دور الرجل بالقياس الى الدور الأساسى الحيوى للمرأة . فالأنثى هى أداه الطبيعة لاستمرار النوع وتواصله بينما يقتصر دور الذكر على كونه مجرد وسيله لهذه الأداه . وفى هذا المظور الجديد يغدوا الحب عند مخيمر سيان كان حقيقيا أو زائفاً أومجرد بطانه للشهويه ليس غبر أداه فى خدمة تواصل النوع إن فطنتنا إلى حتيمه الذاتية تلك التى تجعلنا نقترب من الموضوعية تسوقنا إلى مقدمة كتاب مخيمر « عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس »

وفيها يحدثنا عن تطبيقاته هو للنهج الجاليلى على وقائع الحياة النفسية ويقدم إلينا كمثال توضيحى تنظيره الجديد الذى يفسر به البارانويا والذى يقتصر على الجنسيه المثلية ليس غير ، مما يحقق مبدأ الاقتصـــاد فى العلم بالنسبة للتفسير الفرويدى الذى يقوم أيضاً على العدوانية إلى جانب الجنسية المثلية . واتساقا مع المفاهيم التى طرحها كل من ليفن ولاجاش ها هو مخيمر فى مقدمه الطبعه الثانية لـكتاب أو لبورت وبوستمان سيكولوجية الأشاعة « يقوم بتحقيق مبدأ المجانسة ما بين ظواهر الإدراك والاسقاط والأشاعه بحيث تغدو جميعها مجرد انتظامات متباينه للمثيرات الخارجية والداخلية فى الحقل الفينومينولوجى ومبدأ المجانسه هذا من مبادىء المنهج الجاليلى هو نفسه الذى يقوم مخيمر بتطبيقة على الأحلام فى كتيبه « أحلام لا تحقق رغبه » فالحلم لا يقتصر وكما يقول فرويد . على مجرد كونه تحقيقا لرغبه تهدد النائم باليقظه التى تقطع عليه حاجته إلى النوم بل يضطلع بشتى الوظائف الدفاعية التى تعرفها فى ظاهره الاسقاط .

وفى « رسالة فى سيكولوجية الحب » يتابع مخيمر تقدمة على الطريق التى بداها لاجاش إذا أنصب اهتمام أستاذه فى دراسته على « غيره الحب » دون أن يقدم لنا مع ذلك هذا البنيان النفسى الذى يقيم الحب فى حالته الحقيقية ، وتقوم نظرية مخيمر فى الحب على مفهوم الجنسية الثنائية بحيث يكون الحب الحقيقى عندما يقع الواحد والآخر فى نفس الوقت على أمثل تجسيد لعناصر

السادية أو المازوشية الحبيسة . بذلك يتحقق الديالكتيك فى أعلى صوره والأمر هنا جد بعيد عن نظرة يونج عن الانيما والأنيموس، فالحب الحقيقى لشخص آخر كأقصى صورة من صور العلاقة بالموضوع (الموضوعاتيه) يغدو عند مخيمر فى نظريته مجرد تعبير عن النرجسيه « فأننى عندما اتعشق الآخر الحبيب وأعانقه وأضاجعه إنما اتعشق فى الواقع نفسى وأعانقها وأضاجعها، لأن الآخر الحبيب ليس غير أمثل تجسيد للعناصر الآنثويه الحبيسه عند الرجل والعناصر الذكريه الحبيسة عند المرأة » . وإذا كانت الموضوعاتيه فى أقصى صورها ونعنى الحب الحقيقى قد تكشفت مجرد ذاتيه (نرجسية) ، فما الغريب فى ذلك والموضوعية فى العلم تتكشفت لنا مع كيرت ليفن مجرد نوع من الذاتيه وأن تكن ذاتية اللوغوس التى تجيب بالحقيقة على الواقع لاذاتيه الميثوس التى تقف عند التخييلات الفرديه والأساطير الشعبية .وعلى صفحات هذا الكتاب نلتقى بكثيره من الأفكار الجديدة فصميم الخبرة العشقية توتر لاذ بحيث لا يتحقق الحضور المليء للحبيب إلا فى غيابه وبحيث يغدو الحب الحقيقى نوعا من التثبيت يتحقق لصاحبة فى الرشد فى مقابل التثبيت المرضى الذى يتحقق لصاحبه فى الطفوله .. الخ وفى هذا الكتاب يقدم مخيمر إضافات هامة لنظريته فى سيكولوجيه الموضه ، تلك التى كان قد تعهد غرسها فى كتيبه الفريد لا فى المكتبه العربية فحسب بل والعالمية « فى سيكولوجية الموضة » فهو يتجاوز فى هذا الكتيب ماتوصل إليه فلوجل من نظرات جزئية فظاهرة الموضة تقوم

عند مخيمر علي المفهومين الأساسيين فى علم النفس وهما الديناميه والوظيفيه فالموضه تمثل محصلة الرغبه الغريزية الاستعراضية عند المرأة فى أن تكشف عن مفاتنها والرغبه الأخلاقية لديها فى أن تستر مفاتنها ، ومن هنا تكون المحصلة ساترا لايستر ماتحته وغطاء يكشف عما يخفيه .

ومن ناحية الوظيفية فإن الموضه تتيح تكثير الواحد المؤنث بما يتيح له أن يفلت من الألفه التى تهدده بالموت . ولكن هذا التكثر يتيح للواحد المؤنث من حيث هو « تبدى وظهور » أن يجيب علي النوعية الفريدة لكل موقف من مواقف الحياة النمطية المتباينة ومخيمر بهذا الفهم للموضه الذى يقوم على يقوم علي الديناميه والوظيفية قد وضع يدنا على أنموذج هيكلى وسط تراكمات الوقائع لم نر له شبيها إلا محاولة أدمون رادار ذاك الذى تعرض لمظاهر الموضه كظاهرة فى علم النفس الاجتماعى . لكن أفلتت خيوط الوقائع من بين يديه أذ حاول أن ينسجها على نول عار من عمق الفكرة فانكشفت المحاولة عن مرقعات من هنا وهناك لايجمع بينها حق التناسق فى العرض وندرك هنا صعوبة الفكره تلك التى أستقامت خيوطها إذ عزلها مخيمر بشفافية ورهافه تبين عن عمق الفهم ورفاهه الحدس .

تلك كلمات موجزه نقتصر فيها على أهم النظريات التى أسهم بها مخيمر فى مجال الدراسات النفسية دون أن ندعى بمجال حصرها لكل جديد فهنا وهناك فى كتبه العديدة وفى رسائل طلبته التى أشرف عليها نلتقى بالعديد من الأراء الخصبة الجديده وذلك من قبيل تصوره للرضا فى أشكاله المختلفة الاستاتيكية منها والديناميه ، ونظريته الثورية فى التربية التى تقوم على فلسفة التجاوز والتخطى للمتحقق بما يتيح استمرار التقدم على طريق الصيروره ، ومنها تطبيقة لمفاهيم نظرية الجشطات على وقائع الحيـــاة النفسية والاجتماعية ، ومنها ومنها .. الخ ..

وحديثنا هذا لايقدم كشف حساب عن الجديد من منجزات مخيمر فمازالت الحياة أمامة تنشد أثراء الحياه وتبتعث الجديد وتناضل ضد المألوف ومخاطره ومازال الأمل يحملنا على أن نتوقع منه المزيد والمزيد .

أما عن مترجماته فحسبه أن نقل إلى المكتبه العربية أمهات من الكتب كانت فى حاجة ماسه إليها منها نظرية التحليل النفسى فى العصاب لا توفنخل وخمس حالات من التحليل النفسى لسيجموند فرويد ، والأنا وميكانيزمات الدفاع لأنا فرويد وفى العلاج السلوكى والظاهرياتى لدافيد مارتن ،وعلم نفس الجشطلت لبول جيوم ، وسيكولوجية المرأة لمارى بونابرات ، (أماوحده علم

النفس للإجاش ، والفصل الأول من كتاب كيرت ليفن عن المنهج الجاليلى والارسطالى فيمثلان بالنسبة الى المكتبه العربية ثورة فى عالم الميثودولوجيا ... وما أكثر ماقدم مخيمر وما أندر ما تآنس أحدهم بعمق المعنى فتحاوروا معه أو مع طلابه ومريديه وتنسموا عبير مفاهيمه وضرباته الصميميه فأقاموا حوار حولها أو جدلا معها أو خلفها كى يزهر نبتا للامثل من خلال نوافذ الحوار العلمى .. بل ليت أحرفهم تسكعت فى حارات أسطر كى تدل على متابعه تيار يغمر بنظرياته الجديده بحر الواقع ذاك الذى سكن ماءوء من طول ركاد ... ورغم كل شىء فإن رائد السكلينيكية المساحة فى عالمنا العربى وصاحب اليد الطولى فى التنظير والتصدى قد تجاوز تخوم المألوف وعانق منذ أمد عد العلم ولما يزل يسقى شجرة المعرفة والعلم وعلم النفس — بنظرياته ومؤلفاته الجديدة ويهز غصونها من حين لآخر بترجماته مستظل من يجب من طلاب ومريدين . ويستزيد من يشاء من أقران ومحبين للعلم و ... ودوما يبقى المبدع والعالم والمنظر سابقا وسباقا ليخلق معدياليكتيكيه الحياة حياة ، ويبقى أن نتساءل مع هاملت فى مناجاته الشهيرة «هل حقيقى أن البلد المجهول الذى لم يعبر من وراء حدوده مسافر ، يثبط الإرادة ..ويجعلنا نؤثر

تحمل تشكيل المكان التى نعرفها على أن ننطلق لغيرها مما لانعرف شيئا عنها ؟ » .

دكتور حسين عبد القادر

محاضر فى التحليل النفسى

آداب عين شمس — معهد السينما بأكاديمية الفنون

سكرتير نقابة المهن التمثيلية

في المبادىء التفسيرية للسلوك

وكلها تعبر بلافتات متباينة عن مبدأ واحد هو خفض التوتر على الرغم من اقتصاره على استاتيه الحاضر فى إغفال للديناميات والمستقبل وعلى الرغم من أن خفض التوتر هدف ثانوى يترتب كنتيجة على تحقق الهدف الأساسى من تفوق فى النجاح أو نوعية بنوعها من الطعام الخ .

هذه المبادىء التفسيرية للسلوك تدور فى التيارات المختلفة لعلم النفس حول فكره واحده هى الاتزان الدنيامى من الذى لاينفك ينحطم ، ولاينفك « يسعى تلقائيا » إلى إستعماده نفس الاتزان أن أمكن وإلا فإنه يحقق افضل إتزان يمكن أن تسمح به الظروف القائمة .

ذلك ما تسميه السلوكية والفسيولوجيا بمبدأ الهوميوستازس (إتزان الوظائف) البدنيه ومايسميه تيار الجشطلت بقانون الإمتلاء أو أفضل جشطلت ممكن ، ومايسميه علم النفس العام بمبـــدأ الانضباط الذاتى أو الاتزان التلقائى ومايسميه علم الطبيعة بمبدأ لوشاتليه .

أما عن التحليل النفسى فقـــد مضى من مبدأ الثبات إلى مبدأ اللذة ــ الألم ثم إلى مبدأ الواقع ولـكن ليظهر علينا بعد ذلك بمبدأ جديد للمسالك اللاسويه ونعنى مبدأ قهر التـكرار . وكل هذه الأسماء فى التحليل النفسى تدور حول نفس الفـكر ــ فإذا كان خفض التوتر كاملا

سيان كان مباشراً أو غير مباشر فتلك حالة المسالك السوية ؟ أما إذا كان خفض التوتر جزئياً وغير مباشر فتلك حالة المسالك غير السوية . ويبقى خفض التوتر فى جميع الحالات هو المبدأ التفسيرى الوحيد – ولكن سوف نقف فى شيئا من التفصيل عند مفاهيم التحليل النفس :

مبدأ الثبات

ويعنى ميل الكائن الحى إلى إزالة التوترات أو على الأقل خفضها إلى أقل مستوى ممكن ، وقد استعار فرويد مبدأ الثبات هذا من « فخنر » ليفسر به على السواء عمليات الأفراغ الكامل فى الاشباع والإعلاء وعمليات الأفراغ الجزئى فى حالات الدفاع الفاشل .

مبدأ اللذة — الألم

ويعتبر بمثابة مشتق من مبدأ الثبات فمؤداه أن كل سلوك يرجع إلى توتر اليم ويستهدف التخلص من هذا الإلم تحقيقاً للذه ما إمكن . ويهيمن مبدأ اللذة على منظمه الهى حيث يتخذ صوره العمليات الأولية التى تعرف بالنمط الأولى تكثيف، وازاحه ورمزيه — الخ » .

معنى ذلك أن مبدأ اللذة يهيمن فى الطفولة أما فى الرشد فإنه يتضح فى أحلام اليقظة وأحلام النوم وفى محاولات الراشد المختلفة لتجنب الألم إنكار وكبت . . الخ » ويرى مخيمر أن العمليات الأولية دفاعية فى

طابعها . وبالتالى تنتمى إلى الميكانزمات الدفاعية ؟ وكذلك يرى أن الأحلام لاتعبر فحسب عن مبدأ اللذة بل أيضاً وفى نفس الوقت عن مبدأ الواقع على النحو الذى يتضح من كتاب « الأحـــلام لاتحقق رغبة » الأنجلو سنة ١٩٨١ .

مبدأ الواقع :

يمثل الصورة المعدلة لمبدأ اللذة أو قل هو مبدأ اللذة وقد كبر ونضج وتلائم مع مقتضيات العالم الخارجى . فمبدأ الواقع يستهدف نفس الشىء كمبدأ اللذة ولـكنه بدلا من اللذه العاجلة التى تتعارض مع مبدأ الأمن يستهدف مبدأ الواقع اللذة الآجلة بحيث تتفق مع حاجات الفرد إلى أحاسيس الأمن والرضا عن الذات . وعملية النمو ليست غير إنسحاب مضطرد لمبدأ اللذة أمام مبدأ الواقع . ويتبدى مبدأ الواقع فى إرتقاء الوظائف الشعورية توافقاً مع العالم الخارجى (فالحـكم العقلى يأخذ مكان الـكبت والعمل الملائم يأخذ مكان مجرد الأفراغ) معنى ذلك أن يصبح الفرد قادراً على التسامح تجاه التوترات أى قادراً على تحمل زيادة التوتر أثناء تأجيل الأفراغ وقيامه بالحكم العقلى مما سبق أن رأيناه فى حديثنا عن العقدة الأوديبية . فالتفـكير نوع من التجريب العقلى يقوم على تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج البعيدة للسلوك . ويتحتم على الشخص السوى أن يكون قادراً على تنفيذ ما ينتهى إليه تفـكيره . فإذا كانت أجهزته الحركية تعانى الـكف بحيث يستحيل التنفيذ تـكون اللاسوية تماما كما

تـكون فى الحالات الاندفاعية التى ينتفى منها كل تفـكير عن روية . فالسوية وسط بين الاندفاعية والاحجامية المترددة .

وبديهى أنه بقدر مايستقر مبدأ الواقع تنفصل قطاعات بأسرها من النشاط عن مبدأ اللذة لتنضوى تحت رايه الواقع. ولـكن الغرائز الجنسية التى يتأخر نضجها إلى البلوغ ، تظل خلال فترة طويلة تحت هيمنة مبدأ اللذة . ومن هنا يكون إرتباط الغريزة الجنسية قويا بالخيال والأخاييل التى تنطوى على أشباع هلوسى ومن هنا أيضا يكون الـكبت كأستجابة خيالية أن جاز القول تجاه كل مايبدو فى هذا المجال الجنسى ، ألىما وهذا الـكبت هو بمثابه توقف فى النمو وحسبما تـكون نقطة التوقف هذه (التثبيت) تـكون فى المستقبل نوعية العصاب . ومن هذا كله يبدو أن النمو لايكتمل الا بالبلوغ وعبر المراهقة وهذا الذى دفع مخيمر إلى أن يعتبر المراهقة بمثابة الميلاد الوجودى الحق للفرد (تناول جديد للمراهقة) الطبعة الثانية الأنجلو .

مبدأ قهر التـكرار

هنا يتراجع فرويد من رأى مخيمر عن مبدأ المجانسة[1] ومفهوم السلسلية والمتصل الواحد — كان فرويد وعن حق قد رفض أن تـكون

---

(١) أنظر ه عن الذاتية والموضوعية فى علم النفس مخيمر — سعيد رأفت

السوية عالماً مباينا ومغايراً فى الطبيعة والنوع لعالم اللاسوية ومن هنا ذهب إلى أن الإختلاف بين السوية واللاسويه هو مجرد إختلاف فى الدرجة والشدة . فالسويه أفراغ كامل وللتوترات بينما اللاسوية أفراغ جزئى وغير مباشر للتوترات كل هذا يتفق مع مقتضيات المنهج العلمى ونعنى النهج الجاليلى فى تناول الوقائع . ولكن فرويد عاد ليطلع علينا مع غرائز الموت عام ١٩٢٠ بمبدأ تفسيرى خاص يسميه قهر التكرار . وهنا نتذكر على الفور مقوله ليفن عن علم نفس الملكات فى القرن التاسع عشر عندما كان يتخذ من الظاهرة المتواترة لأفئة يعتبرها بمثابة المبدأ التفسيرى لتوترات الظاهرة فى المستقبل .

بذلك كانت لافئة الخيال والذاكرة والذكاء . . الخ فقهر التكرار مجرد وصف لما يحدث بمعنى أن يحدث بمعنى أن الفرد يجد نفسه أمام تكرار يفرض نفسه عليه وليس فى هذا ماينتمى إلى التفسير . وعلى أية حال فإن فرويد يعنى بمبدأ قهر التكرار للخبرات القوية سيان كانت مفيدة أو ضارة ، لاذة أو الميمة — وهنا ينبغى التفرقة بين « تكرار الحاجة » الذى يستند إلى دورية الفرائز وينتمى بالتالى إلى السوية (كالحاجه إلى الطعام كل بضع ساعات أو الحاجة إلى اليوم كل عشرين ساعة وبين الحاجة إلى التكرار » التى تنتمى إلى اللاسوية .

تنبه فرويد إلى التكرار فى عملية الطرح وفى الأعصبة الصدمية وفى أعصبة القدر حيث تتكرر نفس الأحداث الأليمة . وصحيح أن بعض ظواهر التكرار هذه يمكن فى الواقع إرجاعها إلى مبدأ اللذة .

فالتوتر الذى لم تتحقق السيطرة عليه فى حالة الصدمة يتطلب تكرار المحاولات للتخلص بعد الأوان وعلى مرات من فائض التوتر . ويمكن أن يصدق ذلك على توترات الموقف الأوديبى ولكن التكرار يحدث أيضا بالنسبة إلى اللذات الأودبية الغابرة فى محاولات إحيائها غير الطروح اللاحقة : وكذلك تكرار كل المسالك غير التكيفية بخبراتها الأليمة فهى أيضاً يستحيل تفسيرها بمبدأ اللذة. ومن هنا قام فرويد عام سنة ١٩٢٠ بتنصيب مبدأ قهر التكرار كمبدأ يعمل فيما وراء مبدأ اللذة ويرتبط بغريزه الموت . فليس الأمر هنا بتكرار الحاجة أو بفائض توتر تخلف عن صدمه بل هو حاجة مستقلة إلى التكرار تتخطى مبدأ اللذة . وراح فرويد يدلل على ذلك بأن كل حياة تنتهى إلى ما كانت عليه من حالة لاعضوية سابقة على الحياة مما يعنى التكرار ، وبأن كل جنسية تستهدف التناسل الذى لايعدو أن يكون مجرد تكرار .

ولكن يعترض البعض على قهر التكرار هذا محاولين إرجاع هذه الأنواع من الظواهر التكرارية إلى مبدأ اللذة ، فالمسالك غير التكيفية بخبراتها الأليمة إنما هى نتاج دفاعات فاشلة تتحرك كلما تحركت الرغبة الغريزية المتهجنة . ولكن حتى فى هذه الحالة يظل من الغريب مع ذلك أن يكون مبدأ الواقع عاجزاً عن تصحيح هذه المسالك غير التكيفية بخبراتها الأليمة والضارة . ويرى « لاجاش » أن الحل يمكن أن يكون فى اعتبار قهر التكرار تعبيراً عن القصور الذاتى للمادة . فالخبرات القوية تنزع إلى التكرار سيان كانت لاذة أو أليمة ؟ مفيدة أو ضارة ؟

وتلك آلية غريزية تقع فيما وراء مبدأ اللذة . فإذا كانت الأنا قوية أو اتيح لها ذلك عن طريق التحليل أستطاعت أن تقف فى وجهة قهر التكرار . أما عندما تكون الأنا ضعيفة فإنها تعانى من سلبية هـذا التكرار القهرى .

من الحالة الأولى توقف الأنا إليه التكرار وفى الحالة الثانية تعانى الأنا آلية التكرار . وهذا التفسير على الرغم من معقوليته يبقى على التعارض مع مبدأ المجانسة ومفاهيم السلسلية والمتصل الواحد .

فمبدأ قهر التكرار مايزال بذلك هو المبدأ التفسيرية لعالم اللاسوية وبذلك يعزله عن عالم السوية بمبادئه التفسيرية الأخرى [الثبات واللذة والالم والواقع] ونظرة إلى كتيب « من الجنسية بغرائزها الجزئية إلى العدوانية » مخيمر الأنجلو سنة ١٩٨١ تريفا أن ديالكتيكيا الحياة بما تنطوى عليه من حتمية الصراع بين غرائز الحياة والموت وحتمية أنتصار الأخيرة فى النهاية إنما تضنينا عن تعميد مبدأ تفسيرى يستقل بالمسالك اللاسوية فيأتى على المجانسة بين الظواهر وسلسليتها على متصل واحد . فليست الجنسية فى نهاية الأمر عليه صورة من صور العدوانية [شأنها فى ذلك شأن التدميرية المشروعه والابتكارية] . وعندما تكون فى خدمة غرائز الحياة إيجابية وتوكيداً للذات مما يعنى أنها تكون فى خدمة غرائز الموت بشكل غير مباشر .

وعلى أية حال فإنه إذا كان مبدأ الثبات شبيهاً بمبدأ الهيموستازس

(ايجابية التوافق)

فإن مبدأ الواقع من حيث هو عمليات ثانوية وتعلم شبيه بقانون الأثر . وهذا الصراع الذى رأيناه فى التحليل مابين مبدأ اللذة وقهر التكرار شبيه بالصراع فى السلوكية مابين قانون الأثر وقانون التواتر أى الدربة والتمرين (مرات التكرار) وهكذا تتضح الموازاة بين مدارس علم النفس . فالمسالك غير التكيفية بخبراتها الأليمة فى تشبثها بالبقاء والاستمرار ماتزال تشكل بالنسبة إلى مدارس علم النفس مشكلة رئيسية ربما تكون الموص مشكلات علم النفس على الاطلاق . وفيما بعد سوف نلتقى بالحل الذى يقدمه مخيمر مع مبدأ الجديد أشتهاء الاستثارة ولكن إلى أى حد حالفه التوفيق ؟ !

من مبدأ « خفض التوتر » إلى مبدأ اشتهاء التوتر « الاستثارة ».

يرفض مخيمر كما رأينا أن يتخذ من خفض التوتر أساساً ومعياراً للحكم على العملية التوافقية . فخفض التوتر ليس غير هدف ثانوى يترتب على أشباع الهدف الأساسى من تفوق فى النجاح أو نوعية بعينها من الطعام . . الخ . هذا إلى أن خفض التوتر يحصر العملية التوافقية ضمن حدود من « استاتية الحاضر » بجانبية الفردى والبيئى . فالتوافق فى المفهوم الشائع والخاطىء فى رأينا إنما يعنى استعادة الاتزان بما يستتبعه ذلك من خفض للتوتر سيان بالنسبة إلى الفرد من حيث هو وحده كلية تنطوى على أنسقة فرعية أو بالنسبة إلى علاقة . هذا الفرد كوحده كلية فرعية ضمن بيئته كوحدء كلية أكبر . وبذلك يتجاهل المفهوم الشائع عن التوافق « الديناميات والمستقبل » ، طالما أن توافق الفرد بالنسبة إليه

ينحصر صميمه فى هذا الاتزان المتحقق بما ينطوى عليه من خفض للتوتر هنا والآن .

وعلى النقيض من ذلك تماما مايذهب إليه مخيمر . فصميم الكائن البشرى هو « الإيجابية الخلاقة » التى تتيح للاجيال المتعاقبة أن تتابع مضيها على طريق التقدم والصيرورة ذلك حقاما يميز الإنسان عن سائر الكائنات الحيوانية الأخرى حيث تتتابع الأجيال تكرار ألنفسها فى حلقة . مفرغه . وهنا يصالح مخيمر مابين معطيات الفلسفة الوجودية ومفهوم السيكوديناميه فى علم النفس فعندما يقرر سارتر بان الإنسان ليس بما حققه وبتوق إلى تحقيقه » فإنه إنما يعبر بأسلوب فلسفى عن نفس مفهوم الديناميه ، ذلك الذى أدخله سان سيمون لأول مرة فى علم الاجتماع عندما أعلن أن الحقيقة الاجتماعية ليست غير محصلة لصراعات القوى الاجتماعية القائمة فى المجتمع . وفى علم النفس أدخل فرويد مفهوم الديناميه منذ كتابه عن تفسير الأحلام عام ١٩٠٠ ثم ظهر تيار الجشطلت بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً ليدلك على كل ظاهرة نفسية بل وكل ظاهرة حية إنما هى جشطلت أى أنتظام دينامى ينتج كمحصلة لصراع كل القوى المتمثلة فى الأجزاء .

وبذلك لم يعد الفرد كما لم يعد المجتمع هذه العادات والتقاليد والأساليب التى « تحققت » ورسخت بل هذه « القوى الديناميه » المشرعة والمتحفزة وما سوف تتمخض عنه من محصلات فى « المستقبل » . لم يعد الفرد ولم يعد المجتمع هذه « الاستاتية الساكنة » فى الحاضر على نحو ما تبدو و إتزاناً وإنخفاضاً لكل توتر فى الهنا والآن بل أصبح الفرد ، أصبح المجتمع هذه القوى الديناميه المشرعة وما ترهص بميلاده فى المستقبل بذلك غدا الفرد وغدا

المجتمع كينونة بسبيلها إلى التطور « وديناميه فى صيرورة » مما يعنى أن الواحد والآخر إنما ينحصر صميمه فى « توجه إلى » .

وبذلك نخلص إلى أن الإنسان بما هو إنسان ، إيجابية خلاقة تتيح له على المستوى الفردى وعلى المستوى السلالى أن يتابع مضية على طريق التقدم والصيرورة . ومن هنا اتخذ مخيمر من هذه الإيجابيه الخلاقة المعيار الوحيد لإنسانية الإنسان بما هو إنسان فيقرر :

« بغير إيجابية يكون الفرد عاقراً لأن الإيجابية هى التى تكون دائماً حبلى بأجنه إنجازات المستقبل وطالما أن الإنسان فى صميمه إيجابيه خلاقه(١) فلا يمكن للانسان بما هو إنسان أن يعانى الاغتراب (٢) عن إنسانيته إلا عندما تغيب من حياته هذه الإيجابية الخلاقة . تلك حالة العصابيين والذهانيين من ناحية وحالة السوقة من ناحية أخرى » .

ولكن مخيمر فى محاضراته للدبلومة الخاصة لم يقف عند هذا الحد بل راح يقتفى أثر هذه الإيجابية أملا فى أن يتبين عناصرها التكوينيه : يقول مخيمر « لاحياة بغير تقدم يضطرد ، ولا إمكانية للتقدم بغير إجابة تخاطر بالحياة لتثرى الحياة وتجعلها أكثر

---

(١) أنظر فى « نحو نظرية ثورية فى التربية » مخيمر الانجلو « كيف أن الله خلق الإنسان على شاكلته إلاه صغير .

(٢) أنظر « كيف تقوم بالدراسة الكلينيكية » سامية القطان . الأنجلو سنة ١٩٨٠ مقدمة مخيمر ص ٨ هامش ٢ .

امتلاءاً وأعمق دلالة . لكن إذا كانت الإيجابية هى العدوانية عندما تكون فى خدمة غرائز الحياة(١) فإن الإيجابية لا يمكن أن تتمخض عن الجديد الذى يتيح التقدم إلاعبر المعاناه ومكابدة الآم المخاض أن كان لوليدها الجديد أن يرى النور فتتيح للحياة أن تتابع مضيها على طريق التقدم والصيرورة .

معنى هذا أنه أذا كانت الإيجابية من حيث هى مخاطره لا يمكن إلا أن تكون تعبيراً عن « السادية » فإن الإيجابية من حيث ماتنطوى عليه من معاناه لالام المخاض لا يمكن إلا أن تكون تعبيراً عن « المازوشية » ومن هنا فإن الإيجابية الخلاقة تستلزم إرتفاع حظ الفرد من السادية والمازوشية جميعاً على النحو الذى رأيناه عند الفدائيين ورجال الصاعقه وسبقت الإشارة إليـــه فى « التناقض الوجدانى » وفى « رسالة فى سيكولوجية الحب » .

وهكذا يتحرك مخيمر بالتوافق من أستاتية إتزان الحاضر بمواته إلى الإيجابية الخلاقة التى ترهص بالمستقبل هنا والآن . واستناداً إلى هذا التصور الجديد للتوافق سارع مجدى عبيد إلى إعداد مقياسه عن التوافقية فى رسالته للماجستير بعين شمس — وسنحاول الآن أن نقف بالتفصيلات عند بعض الجنبات الرئيسية .

---

(٣) أنظر « من الجنسية بغرائزها الجزئية إلى العدوانية » مخيمر الأنجلو سنة ١٩٨١ .

كان فرويد فى البداية يفسر كل شيء عن طريق خفض التوتر . فالأعصبة والأذهنة توافقات غير تكيفية(١) بمعنى أنها حلول للصراعات تتيح الافراغ وأن يكن جزئياً وبشكل غير مباشر فى صورة الأعراض المرضية . وإلى هنا كان فرويد منطقيا مع نفسه مسايراً لمبدأ المجانسة الذى يقتضيه النهج الجاليلى فى تناول الوقائع . كان يرفض أن تكون السوية عالماً مبايناً ومغايراً فى الطبيعة والنوع لعالم اللاسوية ، كان الإختلاف بين السوية واللاسوية مجرد إختلاف فى الدرجة والشدة مما يعنى المجانسة ومايلزم عنها من مفاهيم السلسلية والمتصل الواحد . ومن هنا كان من الطبيعى أن يستعين فرويد بمبدأ واحد هو خفض التوتر لتفسير المسالك السوية واللاسوية على السواء .

ولكن فرويد كان يستشعر قصور تفسيره للمسالك اللاسوية ومن هنا كان إبتداعه لمبدأ قهر التكرار ليفسر به المسالك غير التكيفية التى تتابع وجوذها دون أن تبلغ قط إلى خفض تام للتوتر .

ولكنه بذلك يكون قد عاد إلى النهج الارسطالى الذى يقوم على التفكير بلغه الفئات أو الأصناف . فبذلك أصبحت السوية عالماً يستقل بمبادئه التفسيرية ويباين عالم اللاسوية بمبدئه التفسيرى الخاص به ونعنى

---

(١) كان فرويد يرى أن المسالك التكيفية وغير التكيفية تحقق كلها خفض التوتر وأن كان الأولى تحقق ذلك بشكل مكتمل وعلى مستوى عمر الفرد وبشكل يساير قيمة الذات بينما المسالك عديمة التكيف تحقق بشكل جزئى خفض التوتر ولكن على مستوى نكوصى وعلى حساب قيمة الذات وبتقليلها .

قهر التكرار. كان فى ذلك ما يجتاح مبدأ المجانسة ومايلحق من مفاهيم السلسليه والمتصل الواحد. وقد سبق أن رأينا أن مبدأ قهر التكرار لايفسر شيئا بل يذكرنا بسيكولوجية للملكات التى كانت تستقرىء الوقائع وتطلق عليها لافتات، لا تلبث أن تتخذها مبادىء تفسيرية للوقائع المماثله .

فكل مايقوله مبدأ قهر التكرار هو أن الظواهر المرضية لاتنزع إلى خفض التوتر بشكل مكتمل ومساير لقيمه الذات ومصالحها الحيوية بل تتابع تكرار التوتر بشكل قهرى . وواضح أن القول بهذا المبدأ للمسالك غير التكيفيه ومبدأ خفض التوتر للمسالك التكيفية ، هو أمر يتعارض تماما مع مبدأ الاقتصاد فى العلم والذى يقضى على التأويل أن يستعين بأقل عدد ممكن من المبادىء التفسيرية . ومن هنا كانت محاولة مخيمر لرد الأمرين جميعاً إلى مبدأ واحد تفسيرى هو « مبدأ اشتهاء المثير » مما لا يختلف كثيراً عن لذة التوتر أو لذه الاستثاره فى التحليل النفسى ولكنه يغدو هنا بمثابه المبدأ التفسيرى الوحيد للمسالك السويه واللاسويه على السواء .

كل شىء يبدو وكأن الفرد لا تكاد ترتفع به استثاره حتى يعمل على خفضها ولاتكاد تنخفض به استثاره حتى يعمل على توليدها من جديد وعلى رفعها مما يذكرنا بتلك العبارة كانت مأثورة عن إحدى الغانيات التى لم تكن تطيق أن ترى الكأس فارغه ولا أن تراها ملآنه ذلك ولاشك تعبير عن ديالكتيكيه الحياه التى تقضى على نسيج الوجود

أن يكون صراعاً مابين غرائز الحياه وغرائز الموت . ولكن أية عملية من هاتين العمليتين تنتمى إلى غرائز الحياة وأيهما تنتمى إلى غرائز الموت ؟ .

إن خفض ينتمى بالضرور . إلى غرائز الموت طالما أن خفض التوتر فى صورته القصوية

وليس غير الموت والعدم . فصميم الحياه توتر وصراع ومخاطره بالحياة من اجل أثراء الحياة بالجديد . ومن هنا فإذا كنا قد نسبنا خفض التوتر إلى غرائز الموت يكون علينا فى مسايره للمعقوليه أن ننسب إشتهاء لمثير إلى غرائز الحياه . ولكن لاينبغى أن تعمينا الوسائل عن حقيقة الاهداف فديالكتيكية الحياة تقضى علي كل مجموعة من المجموعتين الغريزيتين أن تتخذ من الأخرى وسيلتها إلى هدفها . وبذلك تركب غرائز الحياة مخاطر الموت كوسيلة لتبلغ إلى إثراء الحياة . وكذلك فإن غرائز الموت تجد فى أشباعات غرائز الحياة فى أفراط ، سبيلها للبلوغ إلى العدم . ومع ذلك يظل الهدف فى الحالين مختلفاً . فغرائز الحياة تنشد أثراء الحياة ومن ثم تفتش عن الجديد والاستثاره وتركب المخاطر تشتهيها وتسعى إلى توليدها بينما غرائز الموت تنشد العدم وتركب الإشباعات المسرفه فى سعيها إلى أطفاء جذوة الاستثارة وإزالة التوتر وخفض الرغبة . وفى كلمات فإن غرائز الحياة تتخذ من غرائز الموت مطيتها لإثراء الحياة بينما تتخذ غرائز الموت من غرائز الحياة مطيتها للتأدى إلى العدم .

صحيح أن ديالكتيكية الوجود البشرى تفترض وجود النقيضين معاً ومن ثم تستتبع أن تكون غرائز الحياة وغرائز الموت فعالتين معا وفى

نفس الوقت . ولكن بقدار مايتوهج التوتر تكون غرائز الحياة من حيث المبدأ هى الفعالة ، وبقدر ماينطفىء التوتر تكون غرائز الموت من حيث المبدأ هى الفعالة . ومن هنا كانت منافحتنا عن اشتهاء المثير على أنه المبدأ الأساسى لغرائز الحياة . بذلك نكون قد قلبنا المنظور الفرويدى وغير الفرويدى رأساً على عقب فلم تعد غرائز الحياة(١) تستهدف خفض التوتر [فذلك ماتستهدفه غرائز الموت] بل أصبحت تستهدف إثراء الحياه من حيث هى دلاله أو من حيث هى ماهيه بلغه الفلسفة الوجودية . معنى ذلك أن غرائز الحياة لم تعد تستهدف المحافظة على الحياة بالمعنى الحرفى الضيق لهذه الكلمة وذلك لان المحافظة الحرفية على الحياه وقوف بالحياة ومتى توقفت الحياة عن المضى إلى الجديد فلن تكون حياه بل يكون الموت . ومن هنا فالمحافظة الحقه على الحياة يستحيل أن تكون بغير اثراء الحياة مما يستحيل بغير مخاطره وتفتيش عن الجديد ومن ثم عن الاستثارة والتوتر

---

(١) غرائز الحياة (الجنسية) تستهدف فى النظرية الثانية والأخيرة لفرويد عن الغرائز ، بناء وحدات أكبر فاكبر ، بينما كانت فى نظريته الأولى (غرائز الأنام تستهدف المحافظة على الحياة فى مقابل المحافظة على النوع كهدف للغرائز الجنسية . وصحيح أن بناء وحدات أكبر فاكبر ينطوى بالضرورة على الايجابية بل والإيجابية الخلاقة ولكن فرويد لم يتنبه إلى هذه الرابطه وظل متشبثا الى النهاية بخفض التوتر كمبدأ تفسيرى وهدف تبلغ إليه بشكل تام كل المسالك السويه ، وبشكل جزئى المسالك اللاسويه . .

صميم الحياة إذن هو التوتر هو الصراع هو التحرك أبداً إلى الجديد ، هو المخاطرة بالحياة للمحافظة حقاً على الحياة بإثرائها كدلالة سعيا إلى الجديد لا الاحتماء فى المألوف . وهذا المفهوم للحياة من حيث هى دلالة (ماهيه) يتحتم العمل على إثرائها بحيث تكون أكثر مايمكن امتلاءاً إنما يستتبع بعض النتائج المنطقيه التى تلزم بالضروره عنه . إن مفهوم التوافق ينطوى بالضرورة على المخاطره بالحياة لأثراء دلالتها ، فماذا يكون الأمر لو ان هذه الدلالة أصبحت مهدده بكل ضياع وأنمحاق ؟ هنا يتحتم على الشخص المتوافق فى رأى مخيمر أن يكون قادراً على أن يمضى بالمخاطره إلى الجريمة والانتحار طالما أن فى ذلك ماينقذ دلالة حياته من السقوط إلى الهاوية — يظهر ذلك بوضوح فى سير العظماء من القادة والمفكرين من أمثال هتلر روميل إلى جاليليو والحلاج .. الخ .

ذلك أيضا ما يحدث طواعيه من أفراد الشعوب الحيه عندما يكون الوطن مهدداً بعدوان وإحتلال يطيح بقيمه ذواتهم وبأرضهم وعرضهم ومن ثم بكل دلالة لحياتهم ومن هنا أيضاً فإن الشعوب التى يغلب عليها التوافق حقاً لا تستسلم فى سلبيه إلى كل ألوان الظلم والأجحاف من حكامهم بل تتحرك ثائرة فى مخاطره بالحياة لتعيد للحياة قيمتها ومعناها دلالتها « أطلب الموت واستهن بالموت توهب لك الحياة » . فلا حياة بمعنى الكلمه ولاتوافق دون استهانه بالموت طالما أن المحافظة الحقه على الحياة لا يمكن أن تكون الاعبر المخاطره بالحياة .

وهكذا فإن الإنسان وأن كان يحتاج إلى أحاسيس الأمن فإن أحاسيس الأمن هذه عندما تزيد عن حد أمثل بعينه تقتل روح المخاطرة والإيجابية التى تتمخض عن كل جديد وكل تقدم .

وعندئذ يستحيل أن يكون الإنسان من حيث هو إنسان ذلك الخالق الصغير الذى خلقه الله على شاكلته من كل ماسبق يتضح لنا مايدعم مخيمر من تشبثه باشتهاء الإستثارة كمبدأ تفسيرى لكل المسالك السويه واللاسويه على السواء وأن تباين الانتظام الذى يتخذه المبدأ فى الحالتين .

ففى حالة السويه يمضى اشتهاء المثير فى المسار الصحيح لديا لكتيكيه الوجود البشرى بحيث يرتفع التوتر ويرتفع حتى يبلغ ذروته فى أشباع يحقق عدمه عبر « حفض وقتى للتوتر » ثم لا تلبث الحياة حتى تتوهج من جديد بالتوتر الذى يصاعد ويصاعد حتى يبلغ ذروته .وعندها يفسح المسرح لتوهج توتر جديد فجديد وهكذا فى غير توقف على طريق للتقدم والصيروره . أما فى حالة اللاسويه فإن ديالكتيكية الوجود البشرى تتعطل أن جاز القول بحيث يصاعد التوتر دون أن يتاح له أن يبلغ إلى ذروته ومن ثم دون أن يتاح له أن يبلغ إلى عدمه ، فيتواصل التوتر احتراماً أن جاز القول إلى غير نهاية — كل شىء يبدو هنا وكأن غرائز الموت قد استبدت بالمسرح وسخرت(١) لحسابها توترات الحياة

---

(١) يحدث ذلك عندما تكون المدوانية فى خدمة غرائز الموت بشكل مباشر أنظر « من الجنسية بغرائزها الجزئية إلى المدوانية » أنظر أيضا الصور السابقة من هذا النص الموضحة بخطوط تحتها .

ومن ثم تكون الصبغة الأليمة لهذه التوترات التى لاتمضى فى دورات تنغلق بين الحين والحين فى وقفات وقتيه من الخفض العارض للتوتر بل تدور فى حلقه مفرغه تحبس الكائن البشرى داخل نفسه لتشده يوماً بعد يوم إلى سكون العدم ، ففى حالة السويه يتوهج التوتر ليغدوا ومضه نور تنطفىء فيتوهج توتر جديد يغدوا بدوره ومضه نور مما يجعل الحياة سلسلة من الومضات المضيئة . أما فى حالة اللاسويه فيتوهج التوتر دون أن يبلغ مستوى الومضات المضيئة بل ينحصر فى حدود التراكم الكمى ليغدوا حريقاً أليماً وذلك لأن العدوانية تكون قد انغلق طريقها إلى خدمة غرائز الحياة إيجابية وتوكيداً للذات فيكون عليها أن تخدم غرائز الموت على النحو الذى أوضحناه فى « من الجنسية بغرائزها الجزئية إلى العدوانية » الانجلو سنة ١٩٨١ وبلغه أخرى يمكن القول بأنه فى حالة السويه يرتفع توتر الرغبة ويرتفع حتى يبلغ الذروه فى اللحظة الختامية بالإشباع الذى يخفضه فيفسح المسرح لتوتر رغبه « جديدة » كل ذلك دون أن يكون هناك ما يعترض مضى التوتر إلى ذروته وعدمه أما فى حالة اللاسويه فإن توتر الرغبة لايكاد يرتفع حتى تعترضه [نتيجه للخبرات الطفلية] معوقات من أحاسيس القلق أو الذنب أو رغبه فى فى عقوبه الذات الخ. مما يسد على التوتر مساره الصاعد فيرغم الكائن على أن يدور فى حلقه مفرغـــه بين رغباته ومقاوماته على النحو الذى سوف نتناوله فيما بعـد .

ولـكن مفهوم مخيمر الجديد عن التوافق شأنه شأن مبدئه التفسيرى ونعنى اشتهاء الإستثارة لايمكن لأحدهما أو للاخر أن تكتمل وضوحه إلا بتبيننا للطبيعة الحقيقية للرضى فى العملية التوافقية . ذلك أن الرضى لا يكون دائماً أبداً حاله استاتيه يبلغ إليها الفرد فيستريح عندها بشكل نهائى ، فذلك أمر يقتصر على رضى القناعه الذى يختلف كل الإختلاف عن الصوره الدينامية للرضى سيان كانت رضى الاشباع أو رضى المسره. فالتوافق مزج من استاتيه الرضى وديناميه الرضى مما يعنى رضى القناعه بكل جنبات الواقع » التى تنغلق على التغير، والتحرك الدائب مابين اللارضى ورضى الإشباع أو المسره .فالتوافق فى تعريف مخيمر هو رضى بجنبات الواقع التى تنغلق على التغير ولـكن فى سعى دائب لايتوقف لتخطى جنبات الواقع التى تنغلق علي التغيير؟ ولـكن فى سعى دائب لايتوقف لتخطى جنبات الواقع التى تنفتح للتغير مضيا بها قدماً على طريق التقدم والصيروره . فالتوافق ديالـكتيكية تزاوج مابين النقيضين: ما بين المألوف بعاداته والجديد بمرونته وذكائه ، ما بين الاستاتيه العاجزة لرضى القناعه وديناميه التحرك الدائب بين اللارضى ورضى الاشباع أو المسره .

وإذا كان تعريف مخيمر للتوافق يقوم على النقيضين بحيث يكون الرضى بالواقع الذى ينغلق علي التغير جنبا إلى جنب مع السعى الدائب لتخطى الواقع الذى ينفتح للتغير فما ذلك إلا لما تقتضيه ديالـكتيكية الحياه من خروج « للجديد » من بين أحضان « المألوف » ومن إنطلاق للتغير من ثنايا رحم « السكون » الناعس ومن انبثاق « للحياة »من بين براثن« العدم»

فليس التوافق وليست السويه التى يحققها الشفاء هى وصول بالفرد إلى نقطة استاتيه تكون بمثابه ذروة يقف عندها ويستقر فيها بل التوافق والسويه بالحرى تتيح لصاحبها (بالشفاء فى نهاية العملية العلاجية) أن يمضى واثق الخطى فى بداية تلك الطريق اللامتناهيه من التقدم والصيروره. فصميم السويه تلقائية ومرونة تتيح للايجابيه أن تمضى أبداً بالواقع الذى ينفتح للتغير ، قدماً على طريق التقدم ، وبغير هذا المعنى المضطرد، وبغير هذه الإيجابية التى تدفع الحياة إلى الصيروره لاتكون هناك سويه ولاتوافق لأن الأمر كله يخرج عندئذ من نطاق الإنسان بما هو إنسان وموجود من أجل ذاته إلى استاتيه الأشياء والموجودات فى ذاتها . ومن هنا كان مخيمر منطقيا مع نفسه عندما استند إلى إيقاع التغير الذى يتزايد بسرعة جنونيه [إلى الحد الذى جعل توفلر (١) يتحدث عن الزواليه والكشبانية] ليدعو إلى استخدام مفهوم التوافقيه بدلا من المفهوم الاستاتى القديم ونعنى التوافق .

ولكن إذا كانت التوافقية فى صميمها إيجابية خلاقة فاين يكون موقع الرضى بأنواعة المختلفة ضمن هذا الإطار التنظيرى الجديد ؟ . يتحتم التمييز كما رأينا بين الأنواع المختلفة من الرضى أن كان لنا أن نفهم الطبيعة الديالكتيكية للحياة البشرية . فالرضى عن جنبات الواقع التى

---

(١) « صدمة المستقبل » ترجمه محمد على ناصف — النهضة بالقاهرة . انظر أيضا مقدمة الطبعة الثانية « من رسائل فى سيكولوجية الحب » .

تستحيل على التغيير هو رضى قناعه لا ينطوى على خفض للتوترات (عبر إيجابية التشكيلات البيئة) بل فحسب ضمن حدود من إيجابية التشكيلات الذاتية فضلا عن تحقيق الذات والإمكانيات بل ينحصر فيما يبدو فى سلبية الاستسلام تقبلا للواقع الذى ينغلق على التغيير مثل هذا الرضى باستاتيته ليس من الرضى فى شىء . فالرضى الحقيقى حالة ديناميه (لا يمكن أن تتحقق إلا عبر السعى الدائب الذى لا يتوقف لتخطى جنبات الواقع التى تنفتح للتغير] لا تكاد تتحقق شأنها شأن الاتزان حتى تسارع إلى إخلاء مكانها لحاله من اللارضى . فلحظات الرضى تكون دائماً حبلى باجنه « اللارضى » فالإنسان عندما يبلغ إلى الهدف الذى ينشده يستشعر الرضى (سيان كان رضى الإشباع عندما يكون الهدف جزئياً أو كان رضى المسره الذى يتحقق بالبلوغ إلى الهدف الكلى تحقيقاً لقيمه الذات والإمكانيات) . ولكن حاله الرضى التى يستشعرها الفرد بالبلوغ إلى الهدف لا يمكن أن تدوم، فهى لا تلبث حتى تلد نقيضها حاله من « اللارضى » تشبك الفرد فى سلوك جديد سعيا إلى هدف جديد وهكذا تمضى الحياة السويه تتابعاً من اللارضى بتوتراته إلى لحظات الرضى بخفضها الوقتى للتوترات قبل أن تتمخض عن نقيضها حاله من « اللارضى » تدفع الفرد بتوترها إلى سلوك جديد يتصاعد فيه التوتر اللاذ ويتصاعد حتى يبلغ الهدف فتكون الذروه حاله عابره من الرضى ، من اللذه الخالصه التى تتوهج فى لحظات ليس غير ثم تنطفىء فتفسح المسرح لحاله من اللارضى ، لحاله من التوتر تحمل الحياة فى سلوك جديد وإلى هدف جديد ، وهكذا دون توقف على

طريق التقدم والصيرورة فى محاولات متصلة لاثراء الماهيه وتحديد المصير فالرضى هو هذه الحاله من الدافعيه التى يعيشها الكائن توتراً لاذاً فى طريقه إلى الهدف الذى يكون بتحققه لحظات من الرضى من اللذة الخالصه من الضياع العابر للتوتر والتى لاتلبث حتى تلد نقيضها استهلالا لحالة جديده من اللارضى ، ومن التوتر ، من الدافعيه الجديدة لتمضى بالكائن فى سلوك جديد وتوتر لاذ يبلغ ذروته وعدمه فى اللحظة الختاميه ، لحظه الرضى العابر بلذته الخالصة وخفضه العابر للتوتر . ذلك هو الرضى الذى ينتمى إلى غرائز الحياة إلى اشتهاء الاستثارة بينما ينتمى رضى اللحظة الختامية بلذته الخالصة عدمه التوتر إلى غرائز الموت . ومع ذلك لاينبغى بحال أن نخلط ما بين الرضى وخفض التوتر وذلك لأن الرضى كلذة توتره أو كلذه خالصة إنما ينتمى إلى الهدف الأساسى الذى ينشده الفرد تفوقاً فى النجاح أو نوعية بنوعيها من الطعام الخ . ، بينما يكون خفض التوتر مجرد نتيجة ثانوية تترتب على تحقق الهدف الأساسى .

وخلاصة كل ما سبق أن اشتهاء المثير هو المبدأ التفسيرى الذى ينتمى حقاً إلى غرائز الحياة فى دياليتكيتها الدائبه من غرائز الموت بحيث يقدم تفسيراً ومعقوليه للماللسلك السويه وغير السويه على السواء . فاشتهاء المثير هو الذى يتيح للحياة أن تتحرك إلى مواقف جديدة تنطوى ولا شك على مخاضات مريره ولكنها تظل دائماً الرحم الأبدى لميلاد كل جديد ولكل إبتكار ممكن ومن ثم لكل تقدم وصيروره . وهكذا استطاع مخيمر فى « مفهومه الجديد للتوافق » أن يصحح الكثير بالنسبة إلى ديالكتيكية الحياة والموت وذلك فى مسايره منه لمبـــدأ الإقتصاد فى العلم وللتغير الذى يشكل اللب الصميمى للحياة .

من الشخصية إلى صيغة المسالك السوية واللاسوية

انتهينا إلى أن الإيجابية الخلاقة بما يمكن أن تتمخض عنه من جديد هى التى تشكل صميم الكيان الإنسانى سيان على المستوى الفردى أو على المستوى السلالى . فبغير هذه الإيجابية الخلاقة يستحيل على الحياة أن تواصل تقدمها وصيرورتها ومن ثم يستحيل عليها أن تكون . وهذه الإيجابية بكل صورها تدخل ضمن الوظائف الأساسية لجهاز الأنا يختص كما نعلم بمملكه مبدأ الواقع .

فالانا هى التى تضطلع بتحقيق التوافق بين الفرد والعالم الخارجى ، وداخل الفرد بين حاجاته الغريزية والأخلاقية المتصارعه . وكيما تضطلع الأنا بذلك يكون عليها تنظيم الوصول إلى الشعور والسماح أو عدم السماح بالتعبير الحركى . فالأنا تتحكم فيما ينبغى إدراكه أو فعله . وكذلك تضطلع الأنا بتوجيه الأنشطه وجدولتها للدوافع تبعاً لأهميتها؛ وتعديل مستوى التطلع بما يتفق مع الإمكانيات الفعلية . والأنا فى هذا كله تسعى أساساً إلى تحقيق الذات والإمكانيات . فليس خفض التوترات كما رأينا بهدف أساسى بل هو مجرد نتيجة ثانوية تترتب على إشباع الحاجات تحقيقاً للذات والإمكانيات .

ولعل أعظم ماتملكه الأنا من صور الإيجابيه ينحصر فى المرونه الانفعالية والعقلية . ومن هنا تكون أهمية القدرة على التفكير التى

تفترض بالضرورة عدم الاندفاعية بمعنى تفترض القدره على تأجيل الاستجابات مما يعنى القدره على التسامح تجاه التوترات وذلك لتوقع النتائج المقبلة للسلوك فالتفكير نوع من التجريب العقلى يبلغ إليه الكائن البشرى بالنضج الذى يتيح تربيه الغرائز لديه بإنتقالها من مبدأ اللذه إلى مبدأ الواقع . وبعد ما كان الكبت هو الأسلوب الوحيد الممكن لأنا الطفل الضعيفه تصبح الأنا مع النضج قادره على المواجهه واتخاذ القرار الملائم وأتيان الأفعال الموجه .

ولكن الأنا فى أضطلاعها بوظائفها المختلفة عند الكبار يمكن أن تتعرض لضغوط الهى وضغوط الأنا العليا مما يرغمها على العمل فى اتجاه غير ملائم أو يكفها تماماً عن العمل تلك حاله الأنا المريضة التى تتميز بفقرها من حيث الاقتصاديات النفسية . فالأنا السويه ثرية من حيث الاقتصاديات النفسية لأنها تملك تحت تصرفها كميات كبيرة من الطاقة وذلك لضآلة الكميات المضيعة من الطاقة فى التثبيتات على أهداف وموضوعات طفلية وما يستلزمه ذلك من دفاعات ومن هنا فإن الأنا السويه تستمتع بهامش فسيح من الحرية يجعلها أشبه ما تكون بالعملاق فى مواجهه المتطلبات الغريزية للهى والمتطلبات الأخلاقية للانا العليا وذلك فى حدود ماينطوى عليه الواقع الخارجى من إمكانيات وتحددات . هذه الأنا السويه تنعم بحريه الاختياز(١) ويكون بوسعها أن تتخذ من القرارات أو الأفعال ماتراه مناسباً .

---

(١) يخطىء البعض عندما يرمى التحليل النفسى بالحتمية ، فذلك لا يصدق إلا بالنسبة إلى حالات اللاسوية بينما يستمتع الاسوياء بحرية الاختيار ضمن حدود فسيحة من دون فهم الشخصية وظروفهم البيئية .

أما فى حاله اللاسوية فإن الأنا تكون نتيجة للكميات الهائلة من الطاقة المضيعة فى التثبيتات والدفاعات مسرفة فى فقرها ومن ثم فى ضعفها فلا تنعم بهامش من الحرية فى مواجهة متطلبات الهى ومقتضيات الأنا العليا ؛ بل تعانى ضغوطها فى سلبية « وحتمية » فالنضج لم يتيح لمثل هذه الأنا أن تتحرر من الضغوط البيولوجية والأخلاقية ومن ثم تظل كما كانت فى طفولتها عاجزه عن المواجهه وعن كل صوره من صور الإيجابية بما فى ذلك التفكير عن رويه . مثل هذه الأنا اللاسوية تكون واقعه تحت حتمية الماضى ومن هنا تدرك حاجاتها فى الحاضر ضمن إطار الماضى ومن ثم تبدو لها حاجتها الحالية ضمن منطق ماضيها الطفلى ، شيئاً خطراً فتنطلق دفاعات الأنا تسد عليها بالقلق أو أحاسيس الذنب كل سبيل إلى الاشباع .

وبذلك ينحبس الفرد بين حاجاته ومعوقاته لايستطيع مضيا إلى الأمام لاتحقيقا لذاته ولإمكانياته ؛ لا ولاتحقيقا للراحة الوقتية العابرة عبر الخفض الوقتى لتوتراته .

١ — بداية السلوك .

المصدر الأخير للحفز فى نظرية التحليل النفسى هو الغرائز التى يعيشها الإنسان فى صورة حفزات غريزيه [دوافع ، حوالز ، رغبات ، حاجات الخ] ؛ وقد شكلتها عملية التطبيع الاجتماعى وفقاً لثقافة المجتمع وطبعتها الخبرة الفردية الخاصة بطابعها الفريد . فالغرائز وأن كانت هى

هى عند كل الناس وهى هى عند بعض الناس تبعاً للثقافات المختلفة فهى عند كل فرد تختلف عنها عند كل الناس . هذا من ناحية، ومن ناحية آخرى ينبغى فهم الغريزة وفق النهج الجاليلى بمعنى أنها مجرد « اتجاه إلى » إشباع الجنسية أو العدوانية . وهذا « الاتجاه إلى » ليس غير « متجه » يصدر عن الفرد بينما تنطوى البيئة على متجهات آخرى عديده . ويكون السلوك الواقعى للفرد مجرد محصله للصراع مابين المتجه الصادر عنه والمتجهات القائمة فى الحقل . وعليه فحفزات الشخصيه هى البداية الحقيقة للسلوك .

والحفزة أى الدافع هى حاله من التفكك قوامها « توتر إلى » يحفز الكائن للبلوغ إلى هدف بعينه يترتب على البلوغ إليه خفض عارض لهذا التوتر يفسح المسرح « لتوتر جديد إلى » وهكذا .

وتتبدى الغرائز أى الحفزات فى صورتين هما الحاجات والانفعالات :

والحاجات تتباين تبايناً كبيراً فى طبيعتها وشدتها بل وفى أهميتها النسبية عند كل فرد . وهناك كما نعلم حاجات فسيولوجية أولية وهناك حاجات نفسية إجتماعية [من قبيل الحاجه إلى الأمن ، والحاجة إلى الحب والحاجة إلى المعرفة والحاجة إلى الحرية] وكل هذه الحاجات الثانوية تكون أساسية فى أهميتها للانسان بما هو إنسان ولما يمكن أن يعانيه من اضطرابات . وكلما كانت الحاجة أقل ضرورة لبقاء الكائن الحى ، بعدت عن الجمود والضغط والالحاح [فالحاجة الجنسية أكثر مرونه من الحاجة إلى التنفس أو الطعام [فانفتحت بالتالى للتعديلات

الدفاعية . وظهور الحاجات يصحبه لون من الانفعال يتفاوت بين اللذه والألم تبعاً لما تتوقعه الأنا من إشباع أو إحباط أو تبعا للمعوقات التى تحول بين الأناوبين أن تمضى إلى هدفها . فالحاجة إلى الأمن يصحبها إنفعال القلق بينما الحاجة إلى الشعور بالبراءه وقيمه الذات يصحبها إنفعال القلق الخلقى من أثم أو اشمئزاز أو خزى وهاتان الحاجتان إلى الأمن وإلى البراءه بانفعالاتها المصاحبه من قلق أو أثم يشكلان أهم العوائق فى وجه الأنابل ويعتبران بواعث الأنا علي الدفاع ومن ثم فهما السبيل إلى اللاسويه .

٢ — صياغة السلوك .

تنحصر صياغة السلوك فى شعور الفرد بالحفزة الغريزية « كحاجة إلى » ، واكتشاف الوسائل والموضوعات إلى الهدف الذى ينشده ، ويدخل هذا كله ضمن أختصاصات الأنا كما رأينا — واكتشاف الأنا للوسائل والموضوعات التى تتحقق البلوغ إلى الهدف مسأله يتناولها علم النفس العام تحت عناوين العاده للمواقف المألوفه والمرونه العقلية [الذكاء] للمواقف الجديدة ، بينما يتناولها التحليل النفس تحت عناوين السويه واللاسويه من حيث أن الأولى هى مرونه الشخصية وحريتها بينما الثانية جمود الشخصية وقيودها نتيجه للتثبيتات الطفلية . وليس التفكير عن رويه من حيث هو تجريب عقلى يقوم على تأجيل الاستجابة وتوقع النتائج المقبله غير الصورة التى تتخذها مرونه الشخصية وحريتها إزاء الهى والأنا العليا ، ففى حاله اللاسويه تكون الأنا عاجزه عن ممارسة التفكير عن رويه

لأنهـــا عاجزه عن التحرر النسبي من متطلبات البيئة على نحو ماتبدو متطلبات وضغوطا للهى والأنا العليا. ولما كان اختيار الأهداف والوسائل والموضوعات مسأله تبعد عن الجمود الغريزى فإن الاختيار يظل مفتوحاً من حيث المبدأ لاتستطيعه إلا الأنا السويه .

(أ) ففي حاله السويه :

تتحدد الأهداف بالرجوع إلى الواقع الداخلي والواقع الخارجى ثم تقوم الأنا باختيار الموضوع المناسب الذى يحقق البلوغ للهدف أو الموضوعات البديله ثم تحدد الوسائل للبلوغ إلى ذلك ومن ثم تشرع فى السلوك أو فى سلسلة من المسالك يتصاعد خلالها التوتر لاذا حتى يبلغ اللحظه الختامية بلوغاً إلى هدف من الأهداف الجزئية (رضا الإشباع أو بلوغاً إلى هدف كلى يتيح تحقيق الذات والإمكانيات (رضا المسره) وفى الحالتين يكون الخفض الوقتى للتوتر من حيث هو لذه خالصه بمثابه وقفه راحه تتعبأ بعدها الطاقة من جديد مضياً على الطريق إلى الهدف الكلى ، ومن ثم مضيا مصتلا على طريق التقدم والصيروره إثراء للماهية فى محاولات لتحديد المصير .

ففى حاله السويه يتطور السلوك فى اتجاه الإشباع تحقيقاً للذات والإمكانيات ويتتابع توتراً لاذا يصاعد فى « كريشندو » فى إيقاع مضطرد الزيادة يبلغ ذروته وعدمه فى اللحظه الختامية .

(ب) أما فى حاله اللاسويه:

فتكون حرية الأنا معوقه عن الاختيار بتثبيت على هدف طفلى (وموضوع طفلى) هذا إلى أن موضوع التثبيت يكون قدعانى الاستدخال مما يتمخض عن تشويه فى إدراك الموضوعات الواقعية . وبذلك تكون الأنا عاجزه عن أن تتجه إلى هدف راشد سوى وموضوع راشدحقيقى ففى حاله اللاسويه لايتطور السلوك فى اتجاه الإشباع بل فى اتجاه الدفاع ومن ثم يتتابع توتراً أليماً يدور فى حلقه مفرغهمابين الحاجات والمعوقات فظهور الحاجة هنا يكون [بسبب التثبيت] مصحوباً بإنفعالات آليمه ونعنى القلق أو الإثم — الخ . وهذه الإنفعالات الأليمة تبتعث الدفاعات فتفوق تطور الحاجة وتسد عليها كل سبيل. فعند هذه الانفعالات الأليمة وضد الحاجات الغريزيه المثيره لهذه الانفعالات تستعين الأنا بصوره آلية لاشعوريه بميكانيزماتها الدفاعية. هنا لا يكون السلوك تزايداً مضطرداً من التوتر اللاذ بل يقتصر على التوتر بعيداً عن كل لذه يمكن أن تنتج من توقع البلوغ للهدف والاقتراب منه بالتدريج . فتوتر الحاجة يصطدم بالتوتر الأليم للقلق أو الإثم وتسارع الدفاعات لتسد على الحفزه طريقها مما يتمخض فى العادة عن محصله تتخذ صوره الإعراض المرضية . وبلغه أخرى يمكن القول بأن الأنا تتعجل فى هذه الحالة خفض التوتر بطردها للانفعالات الأليمه والحفزات الخطرة خارج الأنا وفصلها عن الأنا . وذلك هو الأثر التفكيكى للدفاعات . وعملية التوافق هذه فادحة الثمن وذلك لأنه يتحتم استمرارها أو تكرارها . وعندئذ فإن الحفزات

المكبوته أو الانفعالات المكبوته تتسلل فى صورة مشتقات إلى التفكير والسلوك ومن ثم فى صوره محرفه لاتتعرف عليها الأنا كما فى الأحلام والإعراض المرضية . ولكن ينبغى التمييز بين ميكانزمات الدفاع الناجحة وميكانيزمات الدفاع الفاشلة فالأولى تنهى الدفاع مثل الإنفصال عن الكائن المحبوب فى حاله الحداد ومثل الإعلاء حيث الافراغ مستمر بلا تعويق وأن اتجه إلى هدف إجتماعى غير غريزى ومقبول كما فى تصعيد الجنسية المثلية إلى صداقه وتصعيد الحفزات الساديه عند الجراح وتصعيد الحفزات الفميه عند المغنى وكذلك عندما يألف الإنسان أنماطاً من المواقف كانت تبعث فى البداية على الدفاع . أما ميكانيزمات الدفاع الفاشلة تتطلب إنفاقاً متصلا فى الطاقة أذ يقوم على تواصل الدفاع ومن ثم تنتهى إلى أقفار الشخصية ، الامر الذى يقترب بها من لوحة العصاب العقلى سيان كان فى صوره مايسمى بعصاب القلق أو فى صوره النيوراستينا .

٣ — النتائج الثانوية للسلوك .

رأينا أن الهدف الاساسى للسلوك فى حالة السويه هو إشباع الحاجات تحقيقا للذات والإمكانيات . فإذا ماتعذر ذلك يغدو الهدف الاساسى فى حالة اللاسويه هو الدفاع بلوغاً إلى توافق نكوصى يخفض التوتر بصوره جزئية وأن يكن على حساب قيمة الشخصية ووحدتها . ومن هنا فالهدف الاساسى فى حاله السويه هو تحقيق الذات والإمكانيات بينما يكون خفض التوتر مجرد نتيجة ثانوية تلزم عن ذلك . أما فى حالة اللاسويه فيكون الهدف الاساسى هو خفض التوتر وأن يكن بشكل جزئى .

سادساً : إلتقاء الفلسفة الوجودية مع مفهوم السيكوديناميه .من حيث الإلحاح بالأهميه على « اجنة الإيجابية » و «المستقبل » فى تناول التوافق

ويمكن تخصيص مفهوم مخيمر عن التوافق [عبر مقارنته بالمفهوم العادى الشائع للتوافق] بخاصيتين أساسيتين :

الإيجابيه الخلاقة كنقيض قصوى لخفض التوتر بل ولإنعدامه مما يتحقق فى صورته المثلى بالموت والعدم .

والمستقبل كنقيض قصوى للحاضر بحدوده الضيقه ضمن الهنا والإن . فالإيجابية الخلاقة هى وحدها التى تفرو الجديد على أرض المستقبل فتتيح لصاحبها أن يتابع خيه على طريق التقدم والصيرورة .

وبغير إيجابيه يكون الفرد عاقراً لأن الإيجابيه هى التى تكون دائما حبلى باجنه إنجازات المستقبل (١) .

أن الإيجابيه فى الهنا والآن هى رحم المستقبل الذى ينطوى على كل

---

(١) أنظر « فى التناقض الوجدانى » — مخيمر — الأنجلو — هامش ص ٢١ أنظر أيضا « رسالة فى سيكولوجية الحب » — مخيمر — الأنجلو . هامش ص ٩٩ .

جديد ، مايزال فى ضمير الغيب ومن هنا فإن الإيجابية والمستقبل عاشقان ليس لأحدهما أن يوجد بغير الآخر وليس للحياه أن تعرف الأزدهار بغيرهما مجتمعين . وعندما يقرر سارتر بأن الإنسان ليس مجموع ما حققه بل مجموع ما لم يحققه ويتوق إلى تحقيقه مما يعنى أن الإنسان ليس هو ما ضيه بل ما ينطوى عليه من اجنة المستقبل التى تستقر فيه ، فإن سارتر بذلك لا يتحدث حديثا فلسفياً ولا يأتى بجديد بل يمضى فى نفس هذه الطريق التى مضت فيها العلوم الإنسانية منذ وثبتها الأخيرة على طريق التقدم والصيرورة . فما عساه أن يكون مفهوم الدينامية غير هذا الذى يقول به سارتر وان يكن فى لغه تبدو بغموضها وكأنها تنتمى إلى الميتافزيقا .

كان سان سيمون فى مجال العلوم الإنسانية أول من صاح بأن الحقيقة الإجتماعية « ليست بمجموع ما تحقق » من أنظمة ومؤسسات إجتماعية راسخة وتقاليد وأعراف مستقرة بل مجموع مالم يتحقق مما يتجه المجتمع إلى تحقيقه . بذلك كان التحول عن آستاتية المتحقق دينامية الممكن تحققه فى المستقبل .

فالحقيقة الاجتماعية ليست غير محصله لصراع القوى الاجتماعية ومن ثم أرس سان سيمون حجر الأساس لما سوف ينتهى إليه جرفيتش استاذ علم الاجتماع بجامعة السربون . فعالم الاجتماع اليوم لم يعد يهتم بهذه

الجنبات الإجتماعية التى يبست وجمدت شأنها شأن تلك العادات التى يبست وجمدت عند الفرد والتى كانت تشكل كل اهتمام السلوكية أيام واطسون بل أصبح علم الاجتماع اليوم يهتم بهذه الجنبات الدينامية فى الجماعات بل وفى (الخن le nous وما يمكن أن تتخمض عنه فى المستقبل .

ومن هنا فعندما جاء « أوجست كونت » بعد استاذه «سان‌سيمون» تراجع علم الاجتماع من جديد إلى الوراء ايهتم بالمؤسسات الاجتماعية والتقاليد والعادات الاجتماعية وكل ما ينعم بالاستاتية والجمود فى الحياة الإجتماعية . ولكن ينطلق علم الاجتماع بعد ذلك مع « ماركس » الشاب عائداً إلى ذلك المفهوم الدينامى عن الحقيقة الاجتماعية والذى نادى به « سان سيمون » . وكل ما يفعله ماركس لا يزيد عما سوف يفعله « ماركيوز » وغيره من بعده ، يقتصر على مجرد تحديد لهوية الطرفين المتصارعين من الطبقات الاجتماعية والجماعات البشرية .

وفى مجال علم النفس يكون النظر عاده إلى « فرويد » على أنه عملاق هذا المجال لأنه كان أول من أدخل مفهوم الدينامية فى مجال الحقائق النفسية . كان ذلك عام ١٩٠٠ فى كتابه عن تفسير الأحلام وثلاثة عشر عاما قبل أن يظهر تيار الجشطلت ليؤكد نفس هذه الحقيقة ويكرس جهوده لإثباتها والتدليل على صحتها .

فى علم النفس أيضاً كان التقدم الهائل ينحصر ببساطه فى التحول عن تلك الجنبات الأسناتية اليابسة الجامدة من الحقيقة الإنسانية بمنعكساتها وعاداتها إلى تلك الجنبات الديناميه التى يمكن أن تتمخض مع المستقبل عبر محصلاتها العديدة المتباينة عن الجديد والجديد .

وبذلك تتحقق الموازاة ما بين علم الاجتماع عند جرفيتش بتركيزه على « النحن » بديناميانها وما بلغه علم النفس عند فرويد بوجهته المستقبلية وقيامه على الديناميه بكل ما تنطوى عليه من اجنة مضمرة وبراعم سوف تتفتح مع المستقبل (١) .

وهكذا فعندما يأتى سارتر بفلسفته الوجودية يؤكد لنا أن ان الإنسان فى صميمه مشروع لم يكتمل ، ومن ثم يتحدد لا بتحقق بل بمالم يتحقق ويتوق إلى تحقيقه » ، نقول أن سارتر بذلك لا يزيد عن أن يكون قد انضم إلى الموكب العام الذى مضت فيه من قبله العلوم الإنسانية . ومرة أخرى ومن جديد تتباين اللافتات والمصطلحات الفنية ويكون المضمون هو هو عند الجميع .

---

(١) يتضح ذلك فى ارتباط التشخيص الحالى بالتشخيص للتطور المقبل للحالة

فكل العلوم الإنسانية اليوم قد تخلت عن هذه الجنبات الأستاتية الجامده اليابسه التى بلغت من الاستقرار والثبات مرحله اليأس والموات متوقفة عن المخاض وعن كل أمل فى ميلاد جديد . ويستطرد « مخيمر » بأن كل العلوم الإنسانية اليوم إنما تركز اهتمامها على هذه الجنبات التى لم تكتمل من المشروع والتى تكمن مضمرة فى رحم الايجابية تمضى بها الديناميات شيئاً فشيئاً إلى النضج بلوغا إلى الميلاد فى المستقبل . بذلك يكون التحول عن الأستاتية إلى الدينامية تحولا من السكون فى الحاضر إلى الإيجابية فى المستقبل . فكل العلوم الإنسانية اليوم تتجه إلى هذه الجنبات الدينامية بما تنطوى عليه من إيجابية تتجسد فى اجنة وبراعم سوف تخرج إلى النور فى ميلاد جديد على يدالمستقبل . وهكذا ينصب الاهتمام على الجنبات الإيجابية فى الهيا والآن بحسبانها رحم المستقبل . الذى يلد الجديد فيتيح للحياة على المستوى الفردى أو على المستوى السلالى أن تتابع مضيها على طريق التقدم وللصورة . وهكذا فإن مفهوم الدينامية يعنى بالضرورة أن يتركز الاهتمام على الإيجابية فى الهنا والآن كرحم ينطوى على كل ما يعد به المستقبل وكل ما يمكن للمستقبل أن يكونه .

بذلك وبذلك وحدة تسقط كل مقاييس التوافق السابقة المعروفة لإنها تغفل لايجابية إغفالها للمستقبل . فالإنسان بالنسة إليها مشروع

اكتمل تحققه وغدا مجرد سكون فى الحاضر . ولما كانت مقاييس الشخصية التى تستهدف تبين السوية أو اللاسوية هى نفسها مقاييس التوافق التى تستهدف تبين مستوى التوافق عند الأفراد فإن كل مايصدق على المقاييس الأخيرة يصدق بالضرورة على الأولى . وبذلك نكون قد فرغنا ودفعه واحده من كل حاجة إلى مزيد من النقد لكل مقاييس التوافق والشخصية السابقة المعروفة ؟